فلسفة الأخلاق عند المسلمين:

اعتنى الإسلام كغيره من الديانات السماوية والوضعية بالأخلاق وثبت عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"[1]، وينطلق الإسلام من قناعة راسخة تتمثل في كون التعاليم والفرائض الشرعية تجمع بين الواجبات التعبدية والمعاملات البشرية. إلا أن الطابع التقليدي الذي ظهرت به الأخلاق في البيئة الإسلامية طبع عليها الجانب الوعظي والإرشادي الذي يأخذ شكلا تربويا سلوكيا، يستهدف حث المؤمنين على التمسك بالفضائل وتجسيدها في علاقاتهم ومعاملاتهم اليومية.

فالمؤمن الصالح هو الذي يتمسك بالأخلاق التي يعتبر الرسول (ص) قدوتها الحسنة والنموذج الإنساني الذي يجسدها في مواقفه وتصرفاته في مختلف المجالات، ولم يتم التعامل مع المفاهيم الأخلاقية خارج الإطار الديني إلا في مرحلة متأخرة حيث استلم الفكر الفلسفي مهمة إخضاعها للتأمل العقلي والتحليل الفكري وهذا ما سنستعرضه فيما يلي:

1/ الأخلاق عند ابن مسكويه (932 -1030) م:

يعتبر كتاب تهذيب الأخلاق لصاحبه أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه (932م-1030م) من أوائل المؤلفات التي اهتمت بالمسألة الأخلاقية من زاوية فلسفية أي من زاوية عقلية بعيدة عن أدوات الإرشاد والوعظ الكلاسيكية. فقد تناول المفاهيم الأخلاقية ضمن كتبه المشهورة وهي (تهذيب الأخلاق، وكتاب الفوز الأكبر، والفوز الأصغر) وتطرق لموضوع الأخلاق والمعاملات وتنقية شخصية الإنسان، معتبرا أن تطور الإنسان ورقيه الفعلي يعتمد على رقيه الأخلاقي مقارنا حياة الإنسان بحياة النباتات حيث يرى أن الأشجار الكبير لم تكن كذلك في بدايتها بل بدأت نباتات وسيقان صغيرة لتصبح على ماهي عليه من طول وقوة ويعتبر بعض المختصين إن ابن مسكويه سبق (شارل داروين) في موضوع نظرية التطور بمئات السنين.

فالأخلاق في نظره هي التي تكسب صاحبها القوة الحقيقية التي يجب أن يقاس على أساسها الإنسان وليس بالقوة البدنية التي لا تليق كمعيار إلا للحيوانات. وينطلق في تحديده للمعاير الأخلاقية ومدى حظ الإنسان منها من البحث في طبيعة النفس، فيقول " وأيضا فإن النفس وإن كانت تأخذ كثيرا من مبادئ العلوم عن الحواس فلها من نفسها مبدأ أخر وأفعال لا تأخذها عن الحوس البتة وهي المبادئ الشريفة العالية التي تتبني عليها القياسات الصحيحة.

وذلك إذا حكمت إنـه ليس بين طرفي النقيض واسطة فإنها لم تأخذ هذا الحكم من شيء آخر لم يكن أوليا."[1]
وبما أن منطلقات ابن مسكويه مستمدة من تعاليم الإسلام فهو يحرص على الإشادة بالفضائل التي ينبغي أن يكون عليها المسلم وأن يتحلى بها في سلوكه ومواقفه ويذكر أهمها وهي الحياء. الدعة. الصبر. السخاء. الحرية. القاعة. الدماثة. الانتظام. حسن الهدى. المسالمة. الوقار. الورع، أما الحياء فهو انحصار النفس خوف إتيان القبائح والحذر من الذم ... وأما الدعة فهي سكون النفس عند حركة الشهوات. وأما الصبر فهو مقاومة النفس الهوى لئلا تنقاد لقبائح اللذات وأما السخاء فهو التوسط في الإعطاء وهو أن ينفق الأمور فيما ينبغي على مقدار ما ينبغي وعلى ما ينبغي وتحت السخاء خاصة أنواع كثيرة نحصيها فيما بعد لكثرة الحاجة إليها مما يدل على أن ابن مسكويه لا يعتبر الأخلاق مسألة حرية شخصية أو تصرف تلقائي بل يجب أن تخضع لمعايير مشترك أقرتها العقيدة واستقرت في نفوس البشر تقليا لمثل عليا تستمد نموذجها الأسمى من السيرة النبوية.

كما تأثر الفكر الأخلاقي عنده بالفلسفة اليونانية، التي كان فلاسفتها موضع اهتمام المسلمين بعد عملية الترجمة التي فتحت أبواب وآفاق واسعة للفلسفة الإسلامية. "لا ينبغي أن تكتب رسالة في الأخلاق في الفكر الإسلامي دون ذكر له، فلقد كانت شهرة الفلسفة الإسلامية بغير الأخلاق، أما هو فلقد وقف عليها عنايته واهتمامه، ربما .أكبر من أي مفكر إسلامي آخر "[2]إن الفيلسوف مسكويه اضطلع بالجانب الأخلاقي من فلسفة أرسطو في الوقت الذي اضطلع به الفلاسفة الآخرون بالجوانب الفكرية الأخرى من فلسفته كالمنطق والإلهيات وغيرها. ويظهر تأثر مسكويه بأرسطو جليا في مبدأ (الوسطية) الذي يعتبر الفضيلة بين رذيلتين الإفراط والتفريط، يقول: "وينبغي أن يفهم من قولنا (أن كل فضيلة هي وسط بين رذائل) فالفضيلة تمثل مركز الدائرة ... وقد نجد للفضيلة الواحدة أثر من طرف واحد وذلك إذا تصورنا الفضيلة مركزا وأخرجنا منها مستقيما فحصلت له نهاية أمكننا أن نخرج من الجانب الآخر المقابل له خطا أخر على استقامته، فتصير له نهاية أخرى يصيران جميعا مقابلين للمركز الذي فرضناه فضيلة إلا أن أحدهما يجـري مجرى الإفراط والغلو والآخـر

1/ ابن رجب، لطائف المعارف، تحقيق ياسين السواس دار ابن كثير دمشق ط: 5 سنة 1999ص 305
2/ محمد محمود صبحي، الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت1992، ص 310.

يجري مجرى التفريط والتقتير"[1].

وقد كان الهدف من تأليف كتاب تهذيب الأخلاق في نظر صاحبه " أن نحصل لأنفسنا خلقا تصدر به عنا الأفعال كلها جميلة وتكون مع ذلك سهلة علينا، لا كلفة فيها ولا مشقة، ويكون ذلك بصناعة وعلى ترتيب تعليمي"[2] مما يعكس اهتمام متكاملا للأخلاق عنده بالجانبين النظري والعملي.

ا/ الفضيلة:

إن الحديث عن الفضيلة عند مسكويه يرتبط مباشرة بموقفه من النفس البشرية، ولهذا فهو يهتم بطبيعة النفس التي يعتبرها شيئا أرفع من الجسم وأرقى منه ومن ثمة فالفضيلة مصدرها النفس ومعارضة الجسد ومتطلباته التي تعتبر قاسما مشتركا بين الإنسان والحيوان. وفضيلة النفس هي " شوقها إلى أفعالها الخاصة بها، أعني العلوم والمعارف مع هربها من أفعال الجسم الخاصة به"[3] التي هي الغضب والشهوة، ومن هذا التعريف المقدم للنفس واختلافها عن الجسم، يحدد مسكويه قوى النفس إلى ثلاثة أقسام:

- القوة الناطقة: وهي التي تقوم بوظيفة التفكير والتمييز والتبصر في حقائق الأمور وهي (الملكة)
- القوة الغضبية: وهي التي يكون بها الغضب والجدة والإقدام على الأهوال والشوق إلى التسلط والترفع وأنواع الكرامات (السبعية) وآلتها القلب.
- القوة الشهوانية: ويقصد بها القوة التي تكون الشهوة وطلب الغذاء والشوق إلى الملاذ التي مي المآكل والمشارب والمناكح وضروب اللذات الحسية ويسميها (البهيمية) وآلتها الكبد.

وأنواع الفضيلة عنده تتمثل فيما يلي:

- **1الفضيلة النظرية (الفلسفية)** "هناك فضيلة أخرى للنفس، بجانب الفضائل الأخلاقية، هي بها (للنفس) أشبه وأنسب، أعني التشوق للمعارف والعلوم وطلبها كما تقدمت الإشارة إلى ذلك، لأن مقام النفس الناطقة هو باستكمال العلوم والاتحاد بالعقل الفعال"[4] ولبلوغ هذه المرتبة يجب التدرج وفق مراتب تنتقل من المحسوس إلى النفسي ثم العقلي فالروحي، وهذا يتطلب مجاهدة وتمرينا وصبرا يعمد فيه الإنسان إلى تنقية نفسه من الشوائب الحسية لبلوغ مراتب متقدمة في استحكام قدرات العقل وتنمية ملكته بشكل مستمر.

1/ مسكويه، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة, 2001 ص:192

2/ مسكويه، المصدر نفسه ص: 31

3/ مسكويه، المصدر نفسه ص: 16

4/ محمد يوسف موسى، فلسفة الأخلاق في الإسلام وصالتها بالفلسفة الإغريقية، مكتبة الخانجي، القاهرة. 1994 ص:89،

- الفضيلة الإلهية المحضة: " وهي التي لا يكون فيها تشوق إلى آت، ولا تلفت إلى ماض ولا تشيع لحال ولا تطلع إلى ناء ولا ظن بقريب ولا خوف ولا فزع من أمر ولا ما تدعو الضرورة إليه من حاجة البدن والقوى الطبيعية ولا القوى النفسية، لكن يتصرف بتصرف الخير العقلي في أعالي رتب الفضائل، وهو صرف الوقت إلى الأمور الإلهية ومعاناتها بلا طلب عوض."[1]
- الرتبة الأخيرة: وهي أن تتصف أفعال الإنسان بكونها أفعالا إلهية، وهي الخير المحض وهذا ما يشير إليه أبن مسكويه في قوله: " فأفعال الإنسان إذا صارت كلها إلهية، فهي كلها إنما تصدر عن لبه وذاته الحقيقية التي هي عقله الإلهي الذي هو ذاته بالحقيقة، وتزول وتتصدر سائر طباعه البدني بسائر عوارض النفسين البهيميتين، وعوارض التخيل المتولد عنهما، وعن دواعي نفسه الحسية، فلا قبل له حينئذ إرادة ولا همة خارجتان عن فعله من أجلها يفعل ما يفعل، لكنه يفعله بما لا يفعله بلا إرادة ولا همة في سوى الفعل"[2]
- **ب الفضيلة الخلقية (العملية)** ولم يقتصر مسكويه على الجانب النظري في الأخلاق ولكنه تجاوزه إلى المستوى العملي من حيث الممارسة والعلاقات مع الآخر، وهذا يدل على مدى حرصه على الجانب (التطبيقي) للحياة الأخلاقية وهذا ما أشار إليه في بداية كلامه "غرضنا في هذا الكتاب، أن نحصل لأنفسنا خلقاً تصدر به عنا الأفعال كلها جميلة" فالفضيلة الخلقية تتعلق بالعقل العملي، وتحقق للإنسان التوفيق في تصرفاته مع غيره من بني جنسه، وهذه الفضائل تكتسب بالتربية والاعتياد، وهي تتصل بكمال الإنسان القريب أو السعادة الأخلاقية وتمهد للوصول إلى السعادة القصوى. وهو في هذا يبقى وفيا لكل من أفلاطون في إشارته إلى قوى النفس الثلاثة (العاقلة والغاضبة والشهوانية) كما يلتزم بمبدأ الاعتدال الأرسطي الذي له علاقة كذلك بقيم الاعتدال الإسلامي في تجنب الإفراط والتفريط والوسطية التي تتطلب تقديرا عقليا ومحاكمة إرادية متمرسة تبعد السلوك الإنساني عن الزيغ في تغليب العواطف والشذوذ في مجاهدة الطبيعة النفسية المعتدلة.

1/ مسكويه، المصدر نفسه ص: 93

2/ مسكويه، المصدر نفسه ص: 94

ولا يغيب تأثير الجانب الاجتماعي في أخلاق ابن مسكويه فهو يشير إلى عامل التربية في بلوغ مراتب السعادة الأخلاقية، فلا يمكن الحكم على قيمة الإنسان الأخلاقية إذا كان منعزلا عن غيره من الناس بل يجب عليه مخالطتهم والتعامل معهم والتأثر بهم والتأثير فيهم. "إن الفضائل الخلقية إنما وضعت من اجل المعاملات والمعاشرات التي لا يتم الوجود الإنساني إلا بها، وذلك أن العدل احتيج إليه لتصحيح المعاملات، وليزول به معنى الجور، وإنما وضعت العفة لأجل اللذات الرديئة، وكذلك الشجاعة وضعت فضيلة من اجل الأمور الهامة التي يجب أن يقدم الإنسان عليها لأي بعض الأوقات ولا يهرب منها، لذلك ذممنا المتوسمين بالزهد إذا تفردوا عن الناس وسكنوا الجبال والمغارات، لأنهم ينسلخون عن جميع الفضائل الخلقية، وكيف يعفو ويعدل ويشجع من فارق الناس وتفرد عنهم"[1]

الخلق بين الفطرة والاكتساب:

يتعرض ابن مسكويه لمسألة لا تزال متجددة عبر الزمن وهي مدى تأثير العاملين الفطري والمكتسب فيما يتحلى به الإنسان من أخلاق. وللتمييز بين الجانبين يقول: " وهذه الحال تنقسم قسمين: منها ما يكون طبيعياً ومن أصل المزاج كالإنسان الذي يحركه أدنى شيء نحو الغضب. ويهيج لأقل سبب... ومنها ما يكون مستفاداً بالعادة والتدريب، وربما كان مبدؤه بالروية والفكر، ثم يستمر عليه أولاً حتى يصير ملكة وخلقا" وهذا يدل على أن استقرار الخلق في صاحبه يجمع بين الفطرة والاستعداد الذي هو عليه وبين الممارسة والتكرار مما يؤدي إلى انطباع الخلق في صاحبه بشكل دائم وثابت. ويعتبر ابن مسكويه بأن الغلبة بين الجانبين الفطري والمكتسب تميل كفتها لتأثير البيئة والمحيط الاجتماعي موافقا في ذلك رأي (جالينوس) الطبيب اليوناني الشهير ويرفض الموقف القائل بأن من كان على فطرة واستعداد بقي عليه وغلب عليه أكثر من عامل التربية، لأن هذا في رأيه يتعارض مع ما يجب على المجتمع بكل أدواته التربوية والدينية والسياسية توفيره لتربية النشأ وهذا ما أكد عليه أفلاطون من قبل في كتاب الجمهورية الذي يعتبره بعض المختصين كتابا في التربية أكثر من كونه كتابا في السياسة. إلا أنه يقر بأن تأثير التربية أمر متفاوت بين الناس ففيهم من ينزع إليها بسرعة ومنهم من ينزع إليه ببطئ. ويعتبر التربية قادرة حتى على تغيير ما جبل عليه المرء بالفطرة.

1/ مسكويه، المصدر نفسه ص: 166-167

2/ مسكويه، المصدر نفسه ص: 39

الأخلاق عند أبي حامد الغزالي(1058-1111) م:

يعتبر الغزالي أن الأخلاق هي الفكر الذي يهتم بطرائق السلوك وذلك وفق ما جاءت به الشريعة الإسلامية والسنة النبوية. فالغزالي تارة يسمي الأخلاق علم طريق الآخرة، وأخرى يسميه علم صفات القلب، وحينًا يسميه أسرار معاملات الدين، وربما سماه أخلاق الأبرار. ويعتبر كتابه الشهير (إحياء علوم الدين) المؤلف الأساسي الذي ضمنه أفكاره الأخلاقية بشكل عميق ومفصل، يقول زكي مبارك في كتابه (الأخلاق عند الغزالي) " فعلم الأخلاق عنده هو تكييف النفس وردها إلى ما رسمته الشريعة وخطه رجال المكاشفة من علماء الإسلام، ومن سبقهم من الأنبياء والصديقين والشهداء"[1]

فالقضية الأخلاقية احتلت في فكره مكانة بالغة وهو الذي ألف كتابه (المنقذ من الضلال) بعد الخروج من محتنه الفكرية التي كادت تعصف بثوابته العقدية معتبرا ذلك تجربة نفسية. وهو يقول لنا انه قد شكّ على التوالي في ثلاث: في عقائد الإيمان، ومعطيات الحسّ وأولويات العقل، ويوضح لنا الأسباب الثلاثة التي ولّدت الشك لديه: تعدّد الأديان والمذاهب؛ كيفية اعتناق الناس ما يعتنقون، وتعطّش فطري لديه لدرك حقائق الأمور. وهكذا إذ توجه شك الغزالي قبل أي شيء الى إيمانه، عمد إذ رام الاهتداء الى الحق الى ركنين: العودة الى الفطرة الأصيلة وتحديد العلم اليقيني، بيد أنه -وكما يخبرنا بنفسه -لم يستسلم الى اليأس بل راح وحده يبحث عن العلاج. وهنا راحت الأمور تتضح له إذ قذف الله النور في صدره رائفاً به معيده الى الثقة بأولويات العقل. وهنا إذ استعاد الغزالي بتلك النفحة النورانية السماوية إيمانه بالعقل، كان لا بد له بالتالي، واستناداً الى العقل ذاته أن يستعيد إيمانه ولكن بعد أن تمكن من حصر الحق في أربع: الكلام والفلسفة والباطنية والصوفية، على اعتبار أنها معاً تتنازع عقول المسلمين ما يعني أن حصرها هنا أشبه بحصر مسلم مؤمن لا حصر شاكّ. وانطلاقاً من هنا، نجد صاحبنا قد أنقذ من ضلاله واستعاد إيمانه.

ومن الفلاسفة الذين انتفع الغزالي بآرائهم في الأخلاق ابن مسكويه. الذي كان ينقل عن الفلسفة اليونانية بطريقة صريحة، لا لف فيها ولامداراة، فهو من مجددي فلسفة اليونان مع الحرص بقدر ما يمكن على موافقة الشريعة الإسلامية، وكتابه الذي أشرنا إليه له أثر كبير في تكوين الغزالي من الوجهة العقلية ومما يبين تأثر الغزالي بابن مسكويه التشابه الكبير بينهما وهذا ما سنشير إليه في الأمثلة التالية:

1/ زكي مبارك، الأخلاق عند الغزالي، كلمات عربية للترجمة والنشر مصر سنة 2012 ص: 150

- يقول ابن مسكويه: "ومن انخدع عن هذه الموهبة السرمدية الشريفة بتلك الخساسات التي لا ثبات لها فهو حقيق بالمقت من خالقه عز وجل، خليق بتعجيل العقوبة، وراحة العباد والبلاد منه. ويقول الغزالي من انفك عن هذه الجملة كلها، واتصف بأضدادها، استحق أنيخرج من بين البلاد والعباد.
- يقول ابن مسكويه إن أول ما ينبغي أن يتفرس في الطفل ويستدل به على عقله: الحياء، فإنه يدل على أنه قد أحس بالقبيح، ومع إحساسه به يحذره ويتجنبه، فإذا نظرت إلى الصبي فوجدته مستحييًا مطرقا بطرفه إلى الأرض، غير وقاح الوجه، ولا محدق إليك، فهو أول دليل نجابته، والشاهد لك على أن نفسه قد أحست بالجميل والقبيح، وهذه النفس مستعدة للتأديب، صالحة للعناية، لا يجب أن تهمل ولا تترك. ويقول الغزالي ومهما رأى مخايل التمييز فينبغي أن يحسن مراقبته، وأول ذلك ظهورا أوائل الحياء، فإنه إذا كان يحتشم ويستحيي ويترك بعض الأفعال فليس ذلك إلا لإشراق نور العقل عليه، حتى يرى بعض الأشياء قبيحا ومخالفا للبعض، فصار يستحيي من شيء دون شيء والصبي المستحي لا ينبغي أن يهمل بل يستعان على تأديبه بحيائه وتمييزه.
- يقول ابن مسكويه: إن نفس الصبي ساذجة، لم تنتقش بعد بصورة، وليس لها رأي ولا عزيمة تميلها من شيء إلى شيء ويقول الغزالي والطفل أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة"[1]

ويمكن اكتشاف أزيد من هذه الحالات المتشابهة والتي تثبت بأن الغزالي اهتم بشكل كبير بما توصل إليه ابن مسكويه، وتأثر به بشكل مباشر. إلا أن ما قدمه الغزالي يأتي في سياق فلسفي أشمل ويعكس تجربة نفسية متميزة للغزالي كابدها في حياته العملية وارتبطت بنسق فكري خاص به.

الحسن والقبيح عند الغزالي: يميز الغزالي في الأفعال بين ما هو حسن وما هو قبيح ويميز في هذه المسألة بين ثلاث مصطلحات بين الحسن والقبيح:

- فالحسن هو ما يتناسب مع مقصد صاحبه وهدفه والقبيح هو عكس ذلك أي ما يتعارض مع هدفه ومقصده. وغير ذلك فهو عبث. والمعيار هنا هو (التوفيق) بين الوسيلة والغاية

1/ زكي مبارك، الأخلاق عند الغزالي، كلمات عربية للترجمة والنشر مصر سنة 2012 ص: 79-80

- والثاني معياره الشرع، فما حسنه الشرع فهو حسن وما قبحه الشرع فهو قبيح، يقول الغزالي" يكون المأمور به شرعا، ندبًا كان أو إيجابًا، حسنًا، والمباح لا يكون حسنًا"[1]
- والثالث يكون فيه الحسن ما لفاعله أن يفعله، فيكون المباح حسنا مع المأمورات.

والمقصود من هذه الاصطلاحات الثلاثة هو ما حسنه الشرع أو قبحه. فالغزالي يعتبر بأن العمل لا يكون حسنًا لذاته، ولا قبيحا لذاته، فيخالف المعتزلة الذين يقولون بأن من الأعمال ما يدرك حسنه بضرورة العقل، كإنقاذ الغرقى والهلكى. ومعرفة حسن الصدق، ومنها ما يدرك قبحه بضرورة العقل: كالكفران وإيلام البريء، والكذب الذي لا غرض فيه.

الضار والنافع

الضار والنافع بالنسبة للغزالي يدلان على شيء واحد يقول:" إنَّ الكذب ليس حراما لعينه، بل لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره"[2]. وهو مبرر التمييز بين الحلال والحرام فمنه ما هو محرم في عينه، وما حرم لخلل في إثبات اليد عليه فلا يحرم من المعادن إلا ما يضر بالآكل، ولا يحرم من النبات إلا ما يزيل العقل، أو يضعف الصحة، أو يزيل الحياة، ولا يحرم السم إذا خرج عن كونه مضرا، لقلته، أو لعجنه بغيره. وحرمة المال المغصوب ظاهرة لأن الغصب إيذاء للغير، والإيذاء ضرر.وإنما كان الضار شرا على كل حال، لأن الحاكم بالخير أو الشر هو الشرع ولا يعذر المسلم بجهلة للحلال والحرام ما لم يكن حديث عهد بالإسلام.

مقياس الخير والشر:

يجمع الغزالي بين الشرع والعقل في الحكم على الخير والشر، فالعمل يعتبر خيرا إذا وافق الشرع والعقل، أما إذا خالفهما فهو شر وفي تعريفه للسخاء يقول: "هو أن يتيسر عليك بذل ما يقتضي الشرع والعقل بذله عن طوع ورغبة ويتيسر عليك إمساك ما يقتضي الشرع والعقل إمساكه عن طوع ورغبة"[3] وعماده عفة الجوارح كلها ألا يطلقها في شيء مما يختص بها إلا فيما يسوغه العقل والشرع وعلى الحد الذي يسوغه.

1/ زكي مبارك، الأخلاق عند الغزالي، كلمات عربية للترجمة والنشر مصر سنة 2012 ص124

2/ زكي مبارك، الأخلاق عند الغزالي، المصدر نفسه ص 125

3/ زكي مبارك، الأخلاق عند الغزالي، المصدر نفسه ص 127

واعتماد العقل والشرع بشكل متكامل ينبع من طبيعة الشريعة الإسلامية التي تعتمد في أحكامها على ما يتلاءم مع المفاهيم العقلية ذات الطابع المنطقي. وفي القرآن الكريم إشارات عديدة لإعمال العقل والحكمة في فهم المسائل على ضوء الشرع.

الغزالي والتربية الخلقية

تهدف التربية الخلقية عند الإمام الغزالي إلى تحقيق بعض الغايات والأهداف التي تؤدي إلى رفع المستوى الروحي والخلقي والفكري والاجتماعي والسياسي للفرد والمجتمع، ومن تلك الأهداف التي حرص الغزالي على تحقيقها.

-الكمال الإنساني: وذلك بارتقاء النفس الإنسانية من مجال الحس إلى مجال التفكير، والارتقاء بالإنسان من مستوى الخضوع للأهواء والشهوات إلى مقام العبودية لله، حتى تصل إلى حالة تطل بها على عالم الغيب، فتطّلع على الحقيقة، وتصل إلى أقصى مراتب الكمال الإنساني باقترابها من الخالق سبحانه وتعالى.

-تربية النفس على الفضيلة: فقد ركز الإمام الغزالي على أساسيات الفضائل، واعتبرها أربعة هي: الحكمة والشجاعة والعفة والعدل.

ويرى أن تحقيق الفضيلة إنما يكون من خلال تصفية القلب لذكر الله تعالى، والعمل على تزكية النفس وتهذيب الأخلاق.

ويؤكد الغزالي على أهمية الفضائل ودورها في ضبط قوى النفس الإنسانية، وتنمية الاستعدادات الفطرية الخيرة فيها.

-تهذيب قوى النفس الإنسانية: وهو يرى أن ذلك لا يعني قمع نزعاتها وغرائزها واستئصالها تماما، فإن ذلك مخالف لفطرة الإنسان وطبيعته؛ لأن الشهوة إنما خلقت لفائدة، ولها وظيفة لا غنى للإنسان عنها، ولا بقاء له من دونها، فشهوة الطعام ضرورية لحياته ونموه، وشهوة الجنس تحفظ النسل وتساهم في بقاء النوع الإنساني، ولكنه يربط هذه الشهوات بالاعتدال والعفة والعقل.

-حسن توجيه طاقات الأمة: فالغزالي يؤكد على أهمية حفظ طاقات النفس وتوجيهها للإفادة منها على النحو الأمثل، كما دعا إلى ضرورة تخليص الأمة من الشهوات المفسدة للروح الإسلامية، وأكد على الأثر التهذيبي للشريعة الإسلامية في كل من الفرد والمجتمع.

-تكوين الشخصية المتوازنة: ويركز الغزالي في التربية الخلقية على المكونات الرئيسية للنفس الإنسانية وهي: العقل والروح والجسم، وينظر إليها باعتبارها كيانا واحدا متكاملا، ومن ثم جاء تأكيد الغزالي على بعض الأساليب والطرائق التربوية التي تتناول تلك المكونات بشكل متكامل ومتوازن، كالمجاهدة والرياضة لتزكية

القلب والروح، والتفكر لتربية العقل، وترقية النفس الإنسانية في مجالات الإدراك، واللعب لتربية الجسم وتنشيط العقل والحواس.

-إرضاء الله سبحانه وتعالى: دعا الغزالي إلى توخي إرضاء الله تعالى، وحذر من مطامع الدنيا الفانية، وحث على إحياء الشريعة الإسلامية والتماس رضوان الله تعالى، ولذلك فهو يرى أن من أهداف التربية الخلقية إعداد الإنسان في هذه الحياة الفانية للدار الآخرة الباقية؛ لأن الغاية المثلى للإنسان في هذه الدنيا هي حسن العبودية لله وتمام الطاعة والخضوع له.

- أيها الولد المحب

أيها الولد: عنوان وصية حجة الإسلام أبي حامد الغزالي وهي موجهة إلى التلميذ. ومما ورد في هذه الوصيّة:

1حاول ألا تناظر أحداً إلا في المسائل التي تريد أن تصل فيها إلى الحق والحقيقة، وليكن ذلك بينك وبين من تريد أن تناظره حتى لا تكون مباهاة. وكن حريصاً على الحق حتى لو ظهر على لسان من تناظره.

2العالِم المربّي كالطبيب المداوي، والطبيب الحاذق لا يعالج إلا المرضى الذين يُرجى شفاؤهم، وكذلك المربّي لا يشتغل إلا بمن تُرجى استفادتهم.

3مرضى الجهل أربعة أنواع:

أ. من يسأل عن حسد أو بغض. وهذا لا تزيده الإجابة الحسنة إلا حسداً أو بغضاً، فلا تشتغل بجوابه.

ب. من يسأل عن حماقة. وهذا أيضاً لا يقبل العلاج، فلا تشتغل بجوابه.

ج. من يسأل وهو بليد غير قادر على إدراك الإجابات واستيعابها. وهذا لا ينبغي أيضاً الانشغال بجوابه.

د. من يسأل ويريد أن يصل إلى الحقيقة ولديه العقل والفهم الذي يساعده على التعلم، ولا يكون طلبه العلم عن حسد أو عن رغبة في الجاه والمباهاة، ولا يسال ليمتَحِن العالِم. فهذا يقبل العلاج وينبغي الاشتغال بجوابه.

4احذر أن تكون واعظاً ومذكراً قبل أن تكون عاملاً بما تعظ به الناس. وإذا وعظتَ وذكّرتَ فإيّاك والتكلّف في الكلام والتقعر في الألفاظ. ولا يكون قصدك من الوعظ صرف وجوه الناس إليك وتعظيمهم لك.

5 لا تخالط الأمراء والسلاطين ولا تجالسهم، لأنّ في ذلك آفة عظيمة. وإذا حصل أن جالستهم فإياك ومدحهم والثناء عليهم، فإنّ مدح الظالم معصية لله تعالى، ومن دعا لهم بطول بقاء فقد أحب أن يُعصى اللهُ في أرضه.

6 لا تقبل شيئاً من عطاء الأمراء وهداياهم، لأنّ ذلك يُولّد المداهنة والموافقة على ظلمهم، ولأنك إذا انتفعت من دنياهم أحببتهم.

7 اجعل معاملتك مع الله، بحيث يرضى عنك.

8 أحبَّ للناس ما تُحب لنفسك.

9 احرص على أن يكون العلم الذي تتعلمه مُصلحاً لقلبك ومزكّياً لنفسك.